سلسلة المقالات
الفقهية الأصولية
(٦٦)

صِفَةُ الرِّباطِ وَضَوابِطُهُ الكُلِّيَّةُ على ضَوْءِ المَفْهُومِ الأَصْلِيّ الشَّرْعِيّ

وَقَّعَه
الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ أمَّا بعد:

فإنَّ تحرير ألفاظ الشريعة وكلماتها أصل كلِّي يترتب عليه صحة الفهم، وبيان المراد، وحسن التصور؛ وكشف المعاني؛ من خلال التحقيق والتقصِّي المؤدي إلىٰ استقرار مقاصد الشريعة ودعائمها وأسسها، ومن ثَمَّ إلىٰ زوال اللبس والخلط الذي يعتري بِنْيَة المفهوم الكلِّي لما أراده اللَّه ورسوله من الكتاب والسُّنَّة.

وعليه كتبت هذه المقالة لتحديد لفظة الرِّباط في مدلولها الشمولي العام، لغةً وشرعًا، دراية ورواية:

قال الإمام اللّغوي أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه -الكلّي في تقعيد مباني الكلام وألفاظه-: «مقاييس اللغة» (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩):

«ربط: الراء والباء والطاء أصل واحد يدلُّ علىٰ شدٍّ وثباتٍ، من ذلك: رابطتّ الشيء أربطه ربطًا، والذي يُشدّ به: رباط.

ومن الباب الرِّباط: ملازمة ثغْر العدو، كأنهَم قد رُبِطُوا هناك فثبتوا به ولازموه، ورجل رابط الجأش؛ أي: شديد القلب والنفس، وماءٌ مترابط؛ أي: دائم لا يَبْرح». اهـ.

وقال الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانيّ في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٨٥- ١٨٦).

«رَبْطُ الفرس: شدُّهُ بالمكان للْحِفْظ، ومنه رباط الجأش، وسُمِّيَ المكان الذي يُخصّ بإقامة حَفْظه فيه رِباطًا، والرّباط مصدر ربطت ورابطت، والمرابطة

كالمحافظة، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فالمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين، وهي كمرابطة النفس البَدَنَ؛ فإنَّها كمن أقيم في ثَغْرٍ وفُوِّضَ إليه مُراعاتُهُ، فيحتاج أنْ يُراعيه غير مُخِلٍّ به، وذلك كالمجاهدة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، وقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، فذلك إشارة إلىٰ نحو قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فإنّه لم تكن أفئدتهم، كما قال ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وبنحو هذا النظر قيل فلان رابط الجأش». اهـ.

كذلك قال في: «المعجم الوجيز» (ص: ٢٥٢):

«رابط: واظب علىٰ الأمر ولازمه، والترابط: ترابط المعاني وهو قيام علاقة بين مُدْرَكَيْن لاقترانهما في الذّهن بسببٍ ما، والرابطة: العلامة والوُصْلة بين الشيئين، والجماعة يجمعهم أمر يشتركون فيه». اهـ.

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطّبريّ في كتابه: «جامع البيان في تأويل آي القرآن»: (٤/ ٢٢٩- ٢٣٢):

«القول في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: اصبروا علىٰ دينكم وصابروا وَعْدِي إيّاكم علىٰ طاعتكم ورابطوا أعدائكم.

[٨٢٧٩] حدثنا . . . عن الحسن البصري قال: أُمِرُوا أنْ يصبروا علىٰ دينهم الذي ارتضاه اللَّه لهم، وهو الإسلام، فلا يَدَعُوه لشدّة ولا لضرّاء ولا لرخاء حتىٰ

يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم.

[٨٢٨٠] حدثنا . . . . . عن قتادة قال؛ أي: اصبروا علىٰ طاعة اللَّه، وصابروا أهل الضلالة، ورابطوا في سبيل اللَّه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[٨٢٨٤] حدثني . . . . عن محمد بن كعب القرظي يقول: اصبروا علىٰ دينكم، وصابروا الوعد الذي وعدتكم، ورابطوا عدوّي وعدوّكم، حتىٰ يترك دينه لدينكم.

● وقال آخرون: معنىٰ: «رابطوا»؛ أي: رابطوا علىٰ الصلوات؛ أي: انتظروها واحدة بعد واحدة:

[٨٢٨٧] حدثني . . . . عن أبي سلمة عن عبد الرحمن قال لي: يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾؟ قال: قلت: لا، قال: إنّه يابن أخي لم يكن في زمان النَّبِيّ غزو يرابط فيه، ولكن انتظار الصلاة خلف الصلاة.

[**قال الطبري**:] وأوْلىٰ التأويلات بتأويل الآية، قول من قال في ذلك: يا أيها آمنوا صدّقوا اللَّه ورسوله، اصبروا علىٰ دينكم وطاعة ربّكم، وذلك أنَّ اللَّه لم يخصّص من معاني الصبر علىٰ الدين والطاعة شيئًا، فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل، فلذلك قلنا إنّه عني بقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾: الأمر بالصبر علىٰ جميع معاني طاعة اللَّه فيما أمر ونهي، صعبها وشديدها، وسهلها وخفيفها، ﴿وَصَابِرُواْ﴾؛ يعني: صابروا أعداءكم، وقوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أعداءكم وأعداء دينكم من كل من بغاكم بشر؛ لأنَّ ذلك هو المعنىٰ المعروف من معاني الرِّباط، وإنَّما توجه الكلام إلىٰ الأغلب المعروف في استعمال النَّاس من معانيه دون الخفيّ، حتىٰ يأتي بخلاف ذلك ما يوجب صرفه إلىٰ الخفيّ من معانيه حجّة يجب التسليم لها من كتاب أو خبر عن الرسول ﷺ، أو إجماع من أهل التأويل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ يعني بذلك تعالىٰ ذكره: واتقوا اللَّه أيها المؤمنون واحذروه أن تخالفوا أمره، أو تتقدموا نهيه، يقول: لتفلحوا فتبقوا في نعيم الأبد، وتنجحوا في طلباتكم عنده.

[٨٢٩٢] حدثنا . . . . . عن محمد بن كعب القرظيّ أنه كان يقول في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واتقوا اللَّه فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدًا إذا لقيتموني». اهـ.

وفصَّل القول في الآية جُلّ المفسّرين، ومنهم ابن كثير حيث قال في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٢٥، وما بعدها).

«وأمَّا المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة والثبات عليها». اهـ.

قلت: وهذا الفهم الكُلِّي لمعنىٰ الرّباط.

قال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٧١):

«المواظبة علىٰ الطهارة والصلاة والعبادة، يعني: أنَّ هذه الخلال تَرْبِطُ صاحبها عن المعاصي وتكفّه عن المحارم». اهـ.

قلت: وقوله: المواظبة علىٰ الطهارة: تشمل طهارة النفس والقلب والعقل والفكر والمعتقد والعمل والجسم والملبس، وكل ما تعنيه لفظة الطهارة المادّية والمعنوية من المعاني والمفاهيم، التي تدخل في كل مسائل الشريعة في الاعتقاد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

وقال أبو عبد اللَّه القرطبيّ في كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٢٤٧-٢٥١):

«الثالثة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ الآية.

ختم تعالىٰ سورة آل عمران بما تضمّنته هذه الآية العاشرة [وهي آخر آية في السورة] من الوصايا التي جمعت الظهور في الدنيا علىٰ الأعداء والفوز بنعيم

الآخرة، فحضَّ علىٰ الصّبر علىٰ الطاعات وعن الشهوات، والصبر: الحبس، وأمر بالمصابرة فقيل: معناه مصابرة الأعداء، قاله زيد بن أسلم، وقال الحسن: الصلوات الخمس، وقيل: إدامة مخالفة النفس عن شهواتها، فهي تدعو وهي تَنْزَع، وقال عطاء والقُرظيّ: صابروا الوعد الذي وُعِدْتُمْ؛ أي: لا تيْأسوا وانتظروا الفرج، واختار هذا القول أبو عمر.

والأول قول الجمهور.

فقوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾ مثل صبرنا؛ أي: صابروا، والمكافحة: المواجهة والمقابلة.

وأكثر من هذا ما قاله الشيبانيّ أنه يُقال: ماء مترابط أي دائم لا يَبْرَح، وهو يقتضي تعدية الرباط لغة إلىٰ غير ما ذكرناه؛ فإنَّ المرابطة عند العرب: العقد علىٰ الشيء حتىٰ لا يَنْحَلّ، فيعود إلىٰ ما كان صَبَرَ عليه، فَيُحْبَسُ القلبُ علىٰ النيّة الحسنة، والجسمُ علىٰ فعْل الطاعة، ومن أعظمها ارتباط الخيل في سبيل اللَّه كما نصّ عليه التنزيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، وارتباط النفس علىٰ الصلوات كما قاله النَّبِيّ ﷺ ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ.

والرباط أفضل الأعمال التي يبقىٰ ثوابها بعد الموت، كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النَّبِيّ ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إِلَّا من ثلاثة، من صدقة جارية، أَوْ علم يُنتفع به، أَوْ ولد صالح يدعو له**»، وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم [في «صحيحه» (١٦٣١)]؛ فإنَّ الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاذ الصدقات، وذهاب العلم، وموت الولد؛ والرّباط يضاعف أجره إلىٰ يوم القيامة؛ لأنّه لا معنىٰ للنماء إلَّا المضاعفة، وهي غير موقوفة علىٰ سببٍ فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من اللَّه تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة.

وهذا؛ لأنَّ أعمال البرّ لا يُتمكن منها إلَّا بالسَّلامة من العدو والتحرّز منه بحِراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام». اهـ.

قلت: ومن أجل الجهاد في سبيل اللَّه: الجهاد بالحجة والعلم والبيان والمحجة والبرهان؛ من الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، وأقوال أئمة الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وهذا الذي يَبْقَىٰ، ومن يقوم به هم أهل العلم الثقات الأثبات العاملون العالمون المعلمون، من لدن صحابة رسول اللَّه ﷺ و رضي الله عنهم، إلىٰ يوم النَّاس هذا من المرابطين علىٰ مثل ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ وأصحابه الأئمة العلماء الراشدين المهديين.

وعليه فهذا هو المعنىٰ المراد من هذه المقالة، ويدخل فيها هذا الحديث: وهو ما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٥١) قال رسول اللَّه ﷺ:

«ألا أدلكم علىٰ ما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات، إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخُطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

فلا يقتصر الرباط اللغوي أو الشرعي علىٰ ما ذُكر في هذا الحديث فحسب؛ إذْ ذَلك خلل في الفهم الكلِّي، بلَ المراد المرابطة والمصابرة علىٰ كل أمر ونهي وحدٍّ من حدود اللَّه، ولكن المَعْنِيُّ بالحديث -علىٰ ضوء ما تقدم من كلام أهل العلم- بيان عظم الصلاة، وكل ركن وأصل وشعيرة من شعائر الإسلام جليلة عظيمةٍ.

فالأمر بالمعروف عظيمة، والنهي عن المنكر عظيمة، والعلم تعلمًّا وتعليمًّا من أعظم العظائم التي قام عليها وبها الأنبياء والمرسلون، ومن اقتدىٰ واقتفىٰ بهديهم وميراثهم العلميّ، الذي تحيا به العباد والبلاد والأوطان والمجتمعات والقلوب والعقول والأرواح والنفوس، وبزواله أو قلّته تهلك الدنيا والدين سلبًا وإيجابًا، ومن الكليّات الأم للمرابطة: صلاح الضمائر، ونقاء القلوب، وبقاء

الأمانات، وزوال الخيانة والغش والغرر، وإخلاص الأمور والشؤون كلها للَّه وحده، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٧- ٢٩].

فهذه الآيات الثلاث هي ترجمة وتفسير وتفصيل وبيان لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومن يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، وأفضل ما يُفسّر به القرآن هو القرآن، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]، فعليكم بالعلوم الشرعية وفهمها وتدبّرها ووعيها وإدراكها فهي النجاة والخلاص والمناص والصلاح والفلاح والفوز والرباح، ولا يكون ذلك إلَّا بالجهد والتعب في البحث والدراسة والتحقيق والتقصّي في كل مسائل الشريعة، ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلًا؛ والنقل والعقل والواقع العمَليّ يبرهن علىٰ ذلك، غير أنَّ آفات الغفلة، والهوىٰ، والشهوة، والجهل، تدمّر كل الفهوم والبيان والبراهين والآمال.

واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه العليم الحكيم، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

وقّعه

الفقير إلى عفو ربه ورحمته

عيد أبو السعود الكيَّال